مذكرات مترجم يوم سقوط الطاغية

٤٠ كيلومتراً مشياً على الأقدام ليسخر من الصنم

بغداد / صفيد الصدافي

اختفى فدائيو صدام "في اللحظة التي اطلت فيها فوهات مدافع الدبابات الامريكية من فوق جسر ابي غريب!

من المرديان قبل سقوط الصنم بثلاثة ايام ،وكيف عاد الى منزله في ذلك اليوم. لم تكن العودة يسيرة، اذ اختفت السيارات في كراج العلاوي ، فكان يشاهد المواطنين وهم يسرعون ولا ينظر احدهم الى الاخر، حالفه الحظ في تأجير سيارة اقلته الى مدينة الشعلة ثم كان عليه ان يتجه الى غرب بغداد.بعد ان انزله السائق في نهاية الطريق الى المدينة ، شاهد سيارات عديدة تحمل عائلات مهاجرة قررت ترك بغداد،كان منظرا غريبا شاهده أول مرة في حياته . قال " لم اشاهد في حياتي مثل هذه القافلة ، رجال يتشبث بهم اطفالهم، ونساء يحملن على رؤوسهن اكياسا من الطحين . وبين كل مسافة واخرى ترى جنودا وضباطا هاربين ، ومدافع بلا جنود منتشرة في كل مكان".

الوصول

وأخيرا حالفه الحظ في ركوب سيارة قديمة،اوصلته الى سوق(ابو غريب) ،ومن هناك اخذ يمشي مع عدد كبير من المواطنين ، ،قال له البعض ان الاميركان وصلوا الى (ابو غريب). وفعلا شاهد عجلتين اميركيتين فوق الجسر. في الطريق رافقه شاب في الثامنة عشرة من العمر ، لم يعرف لماذا فضل ذلك الشاب ان يرافقه؟ ارادا ان يعبرا الشارع زحفا تحت نفق في الطريق الدولي ، ولكنهما وجداه مليئا بالطين فاضطرا الى العبور ركضا فوقه، كانا يخشيان ان يطلق الاميركان عليهما النار ، الحمد لله لم يحدث شيء. بعد مسيرة ساعتين ، شعرا بالجوع ، فتوقفا قرب منزل امرأة عجوز طلبا منها بعض الخبز، فجاءت لهما بصينية عليها بعض اقراص من خبز واناء لبن، اكلا منها ثم غادرا المكان بعد ان شكرا السيدة العجوز والتي كانت قلقة على ابنها العسكري. بعد حوالي أربع ساعات من التعب والخوف وصلا إلى منطقتهما سالمين.

العودة من جديد

لم يستطع ان يبقى في المنزل طوال ذلك الوقت . لقد قرر ان يفي بوعد قديم قطعه على نفسه!! عليه ان يدخل الى بغداد .أوصله جاره بسيارته ،عند نقطة قرب جسر السريع الدولي في (ابو غريب). المواطنون يعبرون مشيا على الاقدام، رأى رجلا يرتدي العقال والدشداشة ، يقترب من احد الجنود الاميركان ،كانت هذه اول مرة يرى فيها عراقيا يقترب من هذه القوة الجديدة والغريبة،باي لغة تحادثا؟ ،لاشك انها كانت لغة الإشارات،في تلك اللحظة عرف انها سوف تكون مشكلة كبيرة،تذكر قولا لأحد الصحفيين الذين عمل معهم قبل اشهر من الحرب ،اذ تساءل، كيف يمكن لاميركا ان تتعامل مع مجتمع يختلف عنها في اللغة والثقافة؟. تلك اول مرة يرى فيها سيارة هامر في حياته ، شاهد بعض المجندات والمجندين الاميركان ، ،كانوا متوقفين قرب معمل يضم سيارات عديدة ،لقد تجمع حولهم عدد كبير من الناس!!

تساءل في نفسه اين اختفى الفدائيون ؟،اخر مرة شاهدهم فيها ،كانوا يتجمعون باعداد كبيرة بملابسهم السود تحت النخيل وقرب البيوت الواقعة بجانب الطريق القديم". حالفه الحظ بالصعود في سيارة نقل (بيكب)، اغلب من صعدوا فيها من الشباب،بعضهم يحمل امتعة في يده ، توجهوا على طريق (ابو غريب) القديم.قال احمد "كنت انظر الى معسكرات الجيش العراقي المهدمة والمحترقة، تغير كل شيء حتى الغجر الساكنون في هذه المنطقة هجروا أماكنهم واختبأ بعضهم في تلك المعسكرات، لقد اختفت السلطة". شاهد الكثير من المدافع والصواريخ مرمية على الطرقات وزوايا البيوت. واخيرا اوصلتهم السيارة الى منطقة العامرية. في احد التقاطعات شاهد شابين، احدهما يرتدي بنطالا قصيرا، كعادة كثير من الفتيان في بغداد يحمل احدهما قاذفة (ار بي جي سفن)، وكان الاخر يسحب الرايات البيض،التي كانت تضعها العائلات في سياراتها لتتجنب التعرض لها من قبل الاميركان، ويلقيها ارضا. في الطريق شاهد احدهم يقود سيارته ببطء وبين كل لحظة واخرى يشتم الطاغية بصوت عال وهو يقول صدام....أبو... ربما كانت لديه رغبة مكبوتة منذ زمن بعيد وقد وجد متنفسا لها الان

سقوط الصنم

الطريق الى بغداد طويل ومليء بالمخاطر، شاهد العديد من المنازل في منطقتي العامرية والمنصور مغطاة بالتراب الكثيف، بعد فترة رافقه في الطريق شيخ كبير،وبدأ بالتحدث عن سقوط النظام العجيب، وفي نفس الطريق صادفوا شابا صغير السن سار معهم ،ولكنه ابتعد عنهم بعد ان سمع حديثهم، رغم انهم حاولوا ان لا يثيروا مخاوفه،هاهو يقترب من الصنم القابع قرب حديقة الزوراء، كانه تنين حقيقي يسخر من الجميع،اراد ان يقترب منه، ان يبصق عليه وان... اراد ان يحقق رغبة عمرها اكثر من عشرة اعوام!! ولكن وجود الشيخ منعه من ذلك .كان عليه ان يحقق ما اراد المجيء اليه. الوقت تجاوز الظهيرة وحرارة الجو والتعب تكاد تمزقه، ماذا يقول الشيخ عنه؟ لم يكن احد هناك في الساحة، تخاذل قليلا فقال في نفسه "يكفي هذا لقد حققت ما اريد" !! وهناك قطع الطريق عليهم ،كانت هنالك دبابة اميركية تطلق النيران، حينها قرر ان يعود. اثناء العودة تطلع في المصرف القريب من بناية القوة الجوية التي تعرضت الى اصابات مباشرة، كان المصرف الصغير يحترق وتطايرت الأوراق والسجلات منه. وصل الى منزله مساءا وهو مرتاح بعض الشيء..

حين غادر مدينته في ذلك اليوم، اعترف انها تحولت الى شيء اخر، فالمدينة القريبة من المخازن والمنشئات الكبيرة والكمارك، شنت هجوما شاملا على سجن(ابو غريب) بعد ان هرب الضباط ورجال الامن الذين يديرونه، لقد اقتلع الاهالي الابواب، واستولوا على كل شيء، ثلاجات ،مبردات، كراسي، وامتلأت السوق في تلك المنطقة بتلك البضائع، كانت المدينة جائعة لكل شيء. فكنت تسمع أصوات العيارات النارية في كل مكان. فكر في نفسه قائلا "هل هو باعث للانتقام ؟،انتقام من الجلاد الذي سخر منهم منذ عقود،ام انها غريزة كامنة من غرائز البداوة المترسخة ،كانت قابعة في اعماقهم، ثم وجدت متنفسا لها ؟ تذكر سجن (ابو غريب)، ذلك السجن الذي كان متخما بالسجناء، حينما كان يزور قريبا له محكوما بتهمة الهروب من الجيش. تذكر كيف كان يعبر سجن الخاصة وهو ينظر إلى اعداد كبيرة من الشباب المحكومين بقطع اليد!!لا يعرف ما الذي دفعه الى شراء مفاتيح سجن (ابو غريب) الرهيب حينما وجدها عند احدهم ،كانت مفاتيح كبيرة نحاسية ، اشتراها منه بثمن بخس.. كان امرا اعتياديا ان تسمع أي شخصين يتقابلان ان يقول احدهم للاخر، "الحمد لله على السلامة" ويعيد الآخر نفسه الكلام.

حدث و حديث

صدمة السقوط و أمل المستقبل

علي الاشقر

كان تمثال الطاغية يجثم في ساحة الفردوس، كرمز للفردية وعبادة الشخصية، والاستبداد والقمع، والجوع، والفقر، والقتل... كان جبلاً جاثماً على صدور العراقيين، فكيف ومن يستطيع ازاحة جبل من الطغيان..؟ لقد ادار النظام الديكتاتوري الصراع مع خصومه السياسيين بمقتضى التصفيات الجسدية، وشن حملات من التصفية الكارثية لابناء الشعب العراقي. واستدرج الكثير من القوى السياسية لتشاركه في العملية السياسية في محاولة للتضليل على طبيعته الحقيقية في سرقة السلطة والاستيلاء عليها، ثم شرع في تصفياته وحملاته لقمع القوى السياسية المعارضة لنهجه وامتلات السجون بالشباب الذين اذيبت اجسادهم الطاهرة في احواض التيزاب المركزة وهرست في ثرامات اجهزته الامنية، وبسبب العنف (العنيف) الذي مارسه النظام بدت الساحة فارغة ممن يقول (لا) وكفى للنظام،وبعد ان خيل للطاغية ان لا خصوم سياسيون في الداخل، صمم وخطط لزج العراقيين في اتون حرب شرسة مع ايران امتدت لثمانية اعوام قتل فيها الالاف من العراقيين. ولم تثن شراسة النظام وعنفه العراقيين الشرفاء في الداخل من القيام بمحاولات اغتيال رأس النظام، ولكن جميع المحاولات تم اجهاضها وتصفية ابطالها بسبب احكام السيطرة الامنية وتوظيف الاموال الطائلة في سبيل البقاء.

كان امل زوال صدام ينمو في نفوس العراقيين مع مضي ايام الحرب وانسحاب ابناء الشعب العراقي ممن كانوا في الجيش العراقي ، فيما كان الخوف يتسلل الى نفوس ازلام النظام ، وحل يوم ٩ نيسان/٢٠٠٣ ليرى العراقيون اسقاط تمثال صدام وهم يتحلقون حوله مع الجنود الامريكان

هكذا و بعد ان توهم النظام السياسي الديكتاتوري بانه نجح في حسم التناقض التناحري مع خصومه في الداخل، توجه الى الصراع مع اضداده الخارجيين على وفق تفكيره، وهكذا كانت البداية مع حرب الثماني سنوات، ثم غزو الكويت الشقيق في حرب الخليج الثانية والتي كادت تسقط النظام ابان انتفاضة (آذار، شعبان) التي انتفض فيها العراقيون من الجنوب الى الشمال، ولكن الادارة الامريكية اكتفت بتدمير الالة العسكرية للنظام والتي اعتبرها العراقيون دعما للديكتاتور الذي قمع الانتفاضة على نحو لا نظير له حتى ان العراقيين اصابتهم الدهشة بعد ان تم الكشف عن المقابر الجماعية.

وكانت المعارضة العراقية تواصل كفاحها في التحشيد الدولي لمساندة الشعب العراقي، وقامت بفضح سياساته الاجرامية والتي تمثلت بجرائم الانفال والحروب الخاسرة مع الجيران وزج الالاف من العراقيين في السجون، وتبديد ثروات البلاد وجلب ويلات الحصار على ابناء الشعب العراقي، وهكذا انشئ التحالف الدولي بين الولايات المتحدة وبريطانيا وبقية الدول ليستحصل على قرار دولي باسقاط النظام بالقوة العسكرية، ولم يتخل الديكتاتور عن عناده وتصلب رأيه وظهر على الشاشة وكأنه سيسقط التحالف الدولي، ونشر قواته باتجاه الوسط والجنوب، وكان ابناء الشعب العراقي يمنون النفس في ان تقع الواقعة ويشتعل فتيل الحرب التي ستحررهم من الالام والخوف والتسلط. ومن صدام وازلامه.. واتقدت شرارة الحرب واذا بتحريات الطاغية واستعداداته تتهاوى امام الالة العسكرية المتقدمة لقوى التحالف الدولي، والتي حطمت اساسا وقبل عقد من الزمن الالة العسكرية لنظام صدام في حرب الخليج الثانية.

وكان امل زوال صدام ينمو في نفوس العراقيين مع مضي ايام الحرب وانسحاب ابناء الشعب العراقي ممن كانوا في الجيش العراقي، فيما كان الخوف يتسلل الى نفوس ازلام النظام، وحل يوم ٩ نيسان/٢٠٠٣ ليرى العراقيون اسقاط تمثال صدام وهم يتحلقون حوله مع الجنود الامريكان، ولم يكن العراقيون ليخافوا من قوات التحالف الدولي قدر خوفهم من استخدام النظام للسلاح الكيمياوي.. وبدأت المعاول بازاحة جبل الطغيان الجاثم إلا ان رأس النظام الديكتاتوري كان قد اعد مسبقا لمرحلة ما بعد السقوط فاطلق سراح عشرات الالاف من المجرمين والقتلة في سجونه وكان قد مول المنظمات الارهابية (معسكرات اموال)، وهكذا عمت الفوضى الامنية، ونفذ وما زال ازلام النظام خطتهم في تدمير العملية السياسية الهادفة لاعادة تأسيس الدولة العراقية على اساس الديمقراطية وسيادة القانون والمؤسسات وثقافة حقوق الانسان، وانطلق الارهابيون ليمارسوا ابشع انواع القتل بحق الابرياء من ابناء الشعب العراقي تحت شعارات واهية.. ومع ذلك فان التحولات الراديكالية التي حدثت في النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي اكدت ان الامل في نفوس العراقيين يكبر يوماً بعد يوم، برغم كوارث الانفلات الامني لبناء العراق الديمقراطي الجديد.

(الورقة الثامنة)

الضيـــاع في حفـــر البـــاطن

- الانهيـــــار -

عبد الكريم العبيدي

بصري مسكين ايضا لانه اكتشف ذلك العري ، ادعى من دون ان يعي حضوري ، انه تمكن من رؤية الاشياء من دواخلها. وان وصوله الى ذلك العمق لن يتحقق إلا بعد تدمير الوهم. من خلال التزوم عن ايما الفة كاذبة والنفاذ الى ما بعد العدم.. انه يريد ان يؤثث عريه بما لا يدرك. يريد ، واخشى ان لا اكون منصفا ان يثار لشروط ضياعه من كل ما هو مألوف و مجرب و حال دون اتساع لهوه...

بدت النهارات الصحراوية الاولى استكشافية. رمال في الملاجئ وفيما حولها، ورمال في العيون والانوف والافواه. ورمال في التأوهات والحوارات الليلية.. اما في الصباحات الرملية فثمة صور للموت بدأت تكشف عن نفسها..

اقتربنا من حلزون الاسلاك الشائكة الملتف مثل افعى طويلة، وشاهدنا حقل الالغام المليء بالكيبلات المبعثرة وسط عاصفة رملية مدوية.. بعض الجنود اشار الى جهة الشمال، قال: بعد حقل الالغام هذا تقع محافظة حفر الباطن السعودية. ثم دلنا على مقرات اللواء والافواج والسرايا.

توقفنا قرب بعيرين كانا يلوكان ببعض الاعشاب البرية ويحدقان في عدد من المدافع التي كانت مخبأة قريبا منهما.. قيل لنا: ان كل الوحدات العسكرية الآن تحتفظ بعدد من الجمال لاستخدامها كوسائل للاتصال والنقل في اللحظات الصعبة.

كنا نشعر في بادئ الامر، اننا محط اهتمام كل من يرانا، وكثيراً ما تلقينا دعوات من جنود لا نعرفهم. بل قدم البعض على اجراء ما هو ابعد من ذلك حين تكرم بتزويدنا بصمونة كان قد ادخرها الى وقت الازمات. لم نكن نظن للحظة، اننا كنا بنظر جميع من كان يشاهدنا في تلك النهارات اننا مجرد وجبة جديدة من الملتحقين الذين لا يخلون من السجائر والاخبار الجديدةعن احوال المدن التي تركوها قبل شهور، ولذلك كنا نجيبهم اكثر من ان نسألهم. ثم اكتشفنا ان قصص القاء القبض علينا وترحيلنا الى الصحراء لم تعد ذات قيمة، وان روايتها الى تلك المخلوقات المترية والضائعة في الرمال تبدو اشبه بالطرفة! بل ان اكثر ما ادهشنا بالفعل هو الغاؤنا السريع وعدم الاكتراث بتواجدنا بمجرد ان ادرك الجميع اننا بلا اخبار جديدة وان جيوبنا باتت خالية من السجائر!.

غير ان طقوسا كهذه باتت متداولة ومألوفة ففي الايام التالية، مارسنا مثل هذه الالاعيب بدهاء، ورحنا نرافق الملتحقين الجدد في جولات تفقدية خاطفة وقد كشف الاشتر عن مواهب واسعة في المكر، حيث راح يصطادهم بطريقة جماعية، وبعد ان يوقعهم في شراكه، يشرع بحلب امتعتهم وسجائرهم الواحد تلو الاخر. وما ان يشعر ان علب سجائرهم شارفت على النفاد، او ان وجبة جديدة وصلت الى مقر الفوج، يسارع الى انكارهم قبل ان تندلع اول عاصفة في صباح اليوم التالي.

كانت هذه هي اللعبة الصحراوية الاولى التي اكتشفتها في رمال حفر الباطن. في النهارات التالية، بدأت تتوضح رموز الصحراء وتكشف عن ادوارها الطارئة. فلم يعد السائق مثلا، في تلك الرمال ، هو ذلك المخلوق السوقي الذي يبعد غطاء رأه كثيرا عن جبهته ويرتدي قميصا فضفاضا وكأنه بلا ازرار ليظهر تحررا واضحا عن اصول القيافة العسكرية.. كلا، السائق في حفر الباطن غدا رمزا مهما داخل الوحدة. وكان الضباط والمراتب كافة يتحسسون اهميته، وينظرون الى "ورمها المتصاعد" باعتباره واقعا مفروظا. كانوا يرون فيه واسطتهم الوحيدة بين الصحراء والمدن. وكانوا يتقلبون في تعاملهم معه بين تأمين بعض حاجاتهم وبين التودد اليه لادخاره للهزيمة الموقوتة. كان السائق يعي ذلك تماما ويمارس علاقاته معهم وفقا لذلك اللون من التقلبات المحسوبة، خصوصا بعدما خرج الامر عن قائمة العقوبات والتنقلات القديمة.

كان السائق يحرص على ارضاء امر الفوج والضباط وامراء السرايا بما يحتاجونه، كل على قدر اهميته، في وقت يشعرهم دائما بان حدود خدماته الجديدة تبقى حذيقة دائما وغير ثابتة! فهو لم يعد يأبه بالشائعات والنميمة، بل ان الضباط والمراتب انفسهم ما عادوا بعد الان يعلقون اهمية ما على مثل هذه الترهات.

لقد ادرك السائق الصحراوي اهميته تلك من وقت مبكر. فراح يتفنن في صنع الواجبات الطارئة للافلات من قبضة الفوج وفق اهوائه، وكان يعلن عنها في ايما وقت يراه مناسبا، متكئاً على شبكة واسعة من العلاقات والمصالح التي بات يتمتع بها فجأة.

استسلم الجنود لجبروت سائق الرمال تبعا لاستسلام ضباطهم.

كانت طلباتهم المقرونة بسيل من التوسلات تتراوح ما بين الحصول على المزيد من السكائر والتبغ وورق اللف والتمر والصمون والعدس والبرغل "ودبات البيرة" والعرق، وبين تهريبهم المنظم بكتب رسمية مختومة يتكفل السائق بجلبها مقابل اثمان باهظة.

كان الجنود يعرفون ان سائقهم كان لصا محترفا، وكان يبيع عليهم"القلاقيل" باسعار زهيدة. ولكنهم لم يجدوا بد من الانصياع لكل طلباته وشروطه، وما كانت تجلبه سيارته التي تحولت الى حانوت سري –مفضوح!

كان السائق، من جانبه، يعرف "صرماية" كل منهم، حتى الملتحقون الجدد، كانوا يكشفون عن نواياهم علنا ويعرضون اموالهم بسخاء مقابل قضاء حاجاتهم الطارئة. كان يتساهل مع بعض البؤساء والمعدمين من الجنود دفعا للبلاء (!).. ولكنه كان يضع شروطا صارمة لقضاء حاجات الاخرين، خصوصا قضايا تهريب "المؤسرين والمرعوبين" حيث يتفق مع ثلاثة جنود في كل ليلة، عن طريق سماسرة معروفين على انتظاره عند مدخل الفوج، جالبين معهم مبلغا لا يقل عن عشرة دنانير لكل واحد منهم مقابل ادراج اسمائهم في كتاب مختوم باعتبارهم"جنود شغل مهمتهم جلب الارزاق الى الوحدة وحين يوصلهم الى "الدريهمية" تكون مهمته قد انتهت.

كان السائق يتوجس من حين لاخر ما يبديه امر الفوج وضابط التوجيه السياسي من مخاوف. ولكنه كان عرف كيف يغلق افواههم باقتطاع نسب معقولة من ارباحه، اضافة الى تنفيذ عدد من طلباتهم السرية المتمثلة ببيع شحنات "الجينكو والقوق واكياس الرمل" في الاسواق بدلا من جلبها الى مقر الفوج وحسب الاصول!.. ثمة جنود محظوظون تحروا بدقة عن مناطق سكن عدد من ضباط الفوج فاكتشفوا ان الكثير منهم يسكن في احيائهم او قريبا منها، مما جعلهم يتنافسون على عرض المزيد من العطاءات لعقد الصداقات ذات المصالح المشتركة، ومنهم من اصبح مراسلا لهذا الضابط او ذاك، ومنهم من تحول الى ساعي بريد دائمي، ينقل الرسائل من سيده الى زوجته واهله وعشيقاته ويعود محملا برسائل جوابية –غرامية– اضافة الى الاكلات الساخنة والمواد الغذائية المجففة والرشاوى الخاصة المقدمة من اسرة ساعي البريد، مقابل الاعتماد عليه وتسخيره اسبوعيا بالذهاب الى المدينة والعودة الى الجبهة خلال ثلاثة ايام.

وحين شعر اولئك السعاة بنفاد الوقت الضائع من المواجهة، تنكروا لاسيادهم وفضلوا الفرار.

مراسلو امراء الفوج والسرايا والفصائل خلعوا ادوار الظل المشينة التي اشتهروا بها، بات لهم في حفر الباطن لغودا غير تللك التي تورمت من شدة اللطمات..

كانوا يناورون بالخطوة التي تمتعوا بها، يقربون ويبعدون ما يشاؤون عن سرايا المقر التي حفلت بشراكات خاصة كانت تسيرها مصالح تحالف رباعي مؤلف من الامر وحاشيته والطباخ ومساعديه ورأس عرفاء الوحدة وفصيل حراسته، اضافة الى مسؤول مكتب الوحدة وكتبته.. كان هذا التحالف مسؤولا عن نشاطات الوحدة وفروعها. وكان متنفذا ومطلعا على كل اسرارها، وله انصاره في داخل مقر الفوج وفي السرايا. واذا ما احس ان ضابطا او احدا من المراتب خرج عن طاعته يقصيه عن منصبه على الفور.

لقد كان الانهيار مقرفا وهو يقترب من نهايته. وكان الجنود –الضحايا– يشعرون بدوي الزلزال القادم الذي لم يكن بعيدا خصوصا بعدما الفوا ذلك النوع من النفي وقسوة العيش في الرمال، كان الاشتر اكثرهم سخرية من كل ما يدور من حوله. وكان يبدو وكانه ادرك الانهيار مبكرا. اكتفى بتأمين اشباع بطنه داخل داومة ذلك القحط. وحصل على قمصلة متهرئة وبنطال ممزق اخفى به ثلثي دشداشته فبدت وكانها قميصا.

ذات مرة عاد فرحا من احدى جولاته اليومية في سرايا الافواج. ايقظني بطريقة فجة وهو يلوح بكيس اسود صغير مرددا بانبهار بالغ اهزوجة ريفية تدلل على اعتزازه بقدراته ومواهبه.

فركت عيني دون ان ابدي اهتماما بهالة الزهو التي طفت على حديثه. ولكنني اعتبرت بعد حين ان حصوله على ما يقرب من طاستين من الرز والعدس في ان واحد هو بمثابة غنيمة بالفعل.

ولكن كيف يتم اعداد وجبة غذائية منهما؟ .. تأملت "المؤونة السماوية" قليلا بعدما نشرها على بطانية قذرة. ثم بدأت التقط الحصى والشوائب منها امام انظار الاشتر الذي لم يتمالك نفسه من فرط استخفافه بخطوتي التي بدت له غير ذات قيمة فغادر الملجأ متضايقا وهو يهز بكفه.. قلت له : اسمع، فقط اجلب لي قليلا من النفط ثم واصلت التنظيف منشغلا فعلا بامر الخطوة القادمة.

كنت مصمما على تناول اول وجبة ساخنة في الصحراء. وجبة تشبعنا لاول مرة فنتجشأ بعدها بفخر، ولذلك اتممت التنظيف بسرعة وخرجت من الملجأ على امل ان يقودني تاملي في الرمال الى شيء ما.. لم الحظ شيئا عدا العاصفة فسرت باتجاه بعض الملاجئ البعيدةعن المقر ولمحت الاشتر عائدا وبيده "قوطية" خمنت انها مملؤة بالنفط، توقفت قرب "ترمز" متهرئ ورحت اتفحصه واقلبه من كل جانب في محاولة لا كتشاف وسيلة ما في استخدامه. تخلصت من نشارة الخشب التي كانت تزيد من وزنه كثيراً ثم طويته بقدمي لتفادي الكثير من الثقوب فتحول الى شبه طاسة كبيرة وضعتها على رأسي وهتفت: اخيرا ستتم عملية الطهي.

وصلت قبل الاشتر. وانتزعت من سقف الملجأ انبوبا معدنيا صغيرا لم يكن وجوده ضروريا ثم ربطته بثقب في الترمز الذي وضعته على حافة الساتر الترابية جاعلا الطرف الاسفل من الانبوب ينتهي عند كومة من الحصى في زاوية الملجأ. وصل الاشتر اخيرا واندهش مما افعله فظل صامتا وهو يراقب خطواتي المبهمة ... بحثت عن مجموعة من الحصى الناعمة واستطعت ان احصل على الكثير منها وحشرتها في داخل الانبوب ليصبح اكثر ضيقا. ثم تناولت خوذتي الحديدية المعلقة بجدال الملجأ وانتزعت منها الحمالة الجلدية وملأتها بالرز والعدس وطلبت من الاشتر ان يكب قليلا من الماء من زمزميته ورحت افرك حبات الرز والعدس باصابعي فلاحظت ان اظافري قد طالت كثيرا وبدت قذرة. ملات الخوذة بالماء ووضعتها قرب فوهة الانبوب. ثم سكبت النفط في الترمز وعدت الى الملجأ منتظراً سقوط اول قطرة من عل الحصى.

سقطت القطرة الاولى، ثم تلتها الثانية فاوقدت النار في الحصى وتصاعدت السنتها محدثة فرقعة عالية داخل ذلك الملجأ الذي شهدت جدرانه نجاح اول عملية بدائية لطهي "خوذة تمن" بطريقة التقطيرا!.

لم تنجح العملية تماما، فسرعان ما ازداد خرير النفط الذي ادى الى اندلاع النيران والابخرة حول الخوذة، الامر الذي ضاعف من سرعة نفاد النفط وانطفاء النار في نهاية الامر.

فاحت رائحة الرز والعدس فتهلل وجه الاشتر فرحا وردد كالعادة اهزوجة في المناسبة، ثم تسابقنا في منافسة غير شريفة اطلاقا على التهام تلك الوجبة الساخنة والوحيدة طيلة ذلك الانهيار الذي سبق العاصفة.

بعد ان فرغت الخوذة تماما، شرع الاشتر بلحسها وهو يردد ساخرا: "لحس الخوذة ثواب" .. ثم مسحتها بخرقة واعدت تثبيت الحمالة بداخلها ووضعتها على رأسي، شعرت في تلك اللحظة التي حقا جندي حرب..